علم السيمياء بين التغريب والتأصيل الإسلامي

Semiotics: Its position between Westernization and the attempt to find its Islamic root

Ilmu semiotik antara kebaratan dan keaslian islam

عبيدة صبطي*
كلثوم مسعودي**

ملخص البحث

إن المتتبع للتراث الأكاديمي في العالم الإسلامي يجده يعج بالعديد من المؤلفات في مجال علم السيمياء، لكنه في معظمه يعالج الجهود الفكرية الغربية سيمياء فردناند دي سوسير، سيميوطيقا شارلز ساندرس بيرس، أويعيد إنتاجها. والغريب في الأمر أن العديد من رجال الأدب واللغة في عالمنا الإسلامي، وبالرغم من وعيهم بقصور هذا التراث الأكاديمي منهجيا وخطورة ما يحمله من قيم علمانية ونفعية تعارض الفطرة البشرية وتوجيهات الوحي الإلهي، فإنهم لقصور أوخمول أولقوة ضغوط خارجية متعددة الأوجه لا يزالون يعتمدون عليه بصورة كلية في غالب الأحيان في مجال البحث والتدريس. فلابد إذن – ومن المنطلق العلمي– أن نقدم علم السيمياء برؤية إسلامية.

الكلمات المفتاحية: السيمياء– الإصطلاح– التصور الإسلامي– التصور الغربي– الموروث.

* أستاذة بقسم علوم الإعلام والاتصال جامعة محمد خيضر– بسكرة – الجزائر.
** أستاذة بمجال العلوم الإنسانية- جامعة محمد خيضر– بسكرة – الجزائر.

Abstract:
The presence of works on semiotics in the academic tradition in the Islamic world is noticeable nowadays but most of those works are dealing with general topics such as the idea of semiotics as propounded by de Saussaure, and Pierce alongside of many reproductions of their works. It is appalling that many of our scholars in the Islamic world, albeit their awareness of the risk and potential negative ideological impact and its contradiction to human nature and Islamic revelation; still continue to depend on these references in their research and teaching. Therefore, it is significant for us to present the discipline from the perspective of Islam.

Keywords: Semiotics- Terminology- Islamic Perspective- Western Perspective- Tradition.

Abstrak:
Bagi sesiapa yang mengkaji warisan ilmu dalam dunia islam akan menyedari bahawa terdapat banyak buku-buku yang telah dihasilkan dalam bidang ilmu semiotic. Akan tetapi buku-buku yang dihasilkan banyak menceritakan tentang pemikiran yang dibawa oleh pemikir-pemikir barat dan usaha mereka dalam bidang ini seperti Ferdinand de Saussure, Charles Sanders Pierce tanpa ada pembaharuan. Lebih malang lagi, ramai dari kalangan ilmuwan-ilmuwan islam pada hari ini mengetahui tentang kekurangan yang ada dalam bidang ini dari segi metodologi, malah pemikiran sekular yang dibawa berlawanan dengan fitrah manusia dan ajaran tuhan, namun disebabkan tekanan dan pengaruh luaran yang datang dari pelbagai sudut menyebabkan mereka masih bergantung sepenuhnya kepada teori mereka terutamanya dalam penyelidikan dan pendidikan. Justeru, penyelidik berpendapat ilmu ini harus dikaji secara ilmiah berasaskan pandangan islam.

Kata kunci: Semiotic – Istilah – Pandangan Islam – Pandangan Barat – Warisan.

مقدمة

إن المتتبع للتراث الأكاديمي في العالم الإسلامي يجده يعج بالعديد من المؤلفات في مجال علم السيمياء، لكنه في معظمه يعالج الجهود الفكرية الغربية (سيميولوجيا فردناند دي سوسير، سيميوطيقا تشارلز سندرس بيرس)، أو يعيد إنتاجها.

والغريب في الأمر أن العديد من رجال الأدب واللغة في عالمنا الإسلامي، وبالرغم من وعيهم بقصور هذا التراث الأكاديمي منهجيا وخطورة ما يحمله من قيم علمانية ونفعية تعارض مع الفطرة البشرية وتوجيهات الوحي الإلهي، فإنهم لقصور أو خمول أو لقوة ضغوط خارجية متعددة الأوجه لا يزالون يعتمدون عليه بصورة كلية في غالب الأحيان في مجال البحث والتدريس. فلابد إذن –ومن المنطلق العلمي– أن نقدم علم السيمياء برؤية إسلامية، وهذا ما سنحاول تقديمه في هذه الورقة، والتي ستحوي على عرض تمهيدي نقدي لعلم السيمياء الغربي وضرورة البديل الإسلامي، أي بعض ملامح علم السيمياء الإسلامي.

تمهيد

عرفت اللسانيات المعاصرة مجموعة من المناهج النقدية بفضل الترجمة والاحتكاك بالثقافة الغربية، ومن بينها المنهج السيميائي أو السيميولوجي الذي أصبح منهجا وتصورا ونظرية وعلما لا يمكن الاستغناء عنه لما أظهر عند الكثير من الدارسين والباحثين من نجاعة تحليليه وكفاءته في شتى التخصصات وخاصة في ميدان الأدب العربي علوم الإعلام والاتصال والاجتماع. إذن فما هي الخلفية التاريخية للسيمياء أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا؟ وما المقصود بها في التصور الغربي والتصور الإسلامي؟ وما موضوعها؟

١.الخلفية التاريخية للسيمياء أو السيميولوجيا

يعود تاريخ السيميولوجيا إلى ٢٠٠٠ سنة مضت كما يقول "أمبرطو إيكو[*] (مؤلف رواية اسم الوردة) وهو يتكلم عن السيميولوجيا ومنه فعلم السيميولوجيا ليس علما وليد العصر الحديث كما يزعم بعضهم، وفي مقدمتهم الغرب، حيث استعمل في الأصل للدلالة على علم في الطب وموضوعه دراسة العلامة الدالة على المرض، ولا سيما في التراث الإغريقي حيث عدت السيميوطيقا جزءا لا يتجزأ من الطب.[١] وقد وظف أفلاطون لفظ (Sémiotique) للدلالة على فن الإقناع وهذا ما أورده في كتابه وأكد أن للأشياء جوهرا ثابتا وأن الكلمة أداة للتوصيل، وبذلك يكون بين الكلمة ومعناها تلاءم طبيعي بين الدال والمدلول، كما اهتم أرسطو هو الآخر بنظرية المعنى وظل عملهما في هذا المجال مرتبطا أشد ما يكون بالمنطق الصوري، ثم توالت اهتمامات الرواقيين الذين أسسوا لفكر سيميولوجي يقوم على التمييز بين الدال و والمدلول (http://www.arabicnadwah.com).وهؤلاء حسب إيكو اكتشفوا أن الاختلاف في أصوات اللغات وحروفها، أي شكلها الخارجي الذي يدعى بالدال ولكن هذه الاختلافات الشكلية الظاهرية بين اللغات البشرية، توجد بين مرئيات ومدلولات متماثلة تقريبا، ويصل امبريطو إيكو إلى أن هؤلاء الرواقيين (أي الذين لا يتكلمون اليونانية كلغة أم) قد سبقوا دي سوسير في اكتشافات الفرق بين الدال والمدلول، فهولاء الدخلاء كانوا يمتلكون تجربة لا يمتلكها اليونانيون، أي تجربة الازدواج الثقافي والحضاري واللغوي من خلال ثلاث لغات: الكنعانية، والأمازيغية واليونانية. أما المرحلة الثانية فهي مرحلة القديس الجزائري أوغسطين – حسب إيكو – فهو أول من طرح سؤال: ماذا يعني أن نفسر ونؤول؟ وهكذا راح يشكل نظرية التأويل النصي (تأويل النصوص المقدسة)، وبهذا تصبح أهمية مساهمته تكمن في تأكيده على إطار الاتصال والتواصل عند معالجته لموضوع العلامة.[٢]

أما المرحلة الثالثة فهي مرحلة العصور الوسطى، وكانت فترة مهمة من فترات التركيز على العلامات واللغة، ويمكن ذكر اسم ابيلار واسم روجر بيكون.

وإذا حاولنا استقراء تراثنا العربي في العصور الوسطى، وجدناه حافلا بالدراسات المنصبة على دراسة الأنساق الدالة، وكشف قوانينها أو ما أسموه بعلم "أسرار الحروف" أي علم "السيمياء" ولاسيما تلك المجهودات القيمة التي بذلها مفكرونا من مناطقة وبلاغيين وفلاسفة وأصوليين...الخ أمثال (جابر بن حيان، والحاتمي، وابن سينا، والفارابي، والغزالي، وابن خلدون، والجرجاني، والقرطاجي، وغيرهم) (http://www.merbad.net).

ثم جاءت المرحلة الرابعة، حيث نشطت فيها نظرية العلامات مع المفكرين الألمان والإنجليز في القرن السابع عشر فمع بداية النهضة الأوروبية نصادف الفيلسوف ليبنتز (Leibnitz) الذي حاول أن يبحث عن نحو كلي للدلائل أو العلامات، وعن ضرورة وجود لغة رياضية شكلية تنطبق على كل طريقة في التفكير.[٣]

أما المرحلة الخامسة والتي يتفق جل الباحثين على أنها المرحلة الحاسمة في التحديد العلمي للسيميولوجيا، و هي مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنموذج اللساني البنيوي الذي أرسى دعائمه وأسسه العالم السويسري فرديناند دي سوسير (Ferdinand de Saussure) في فرنسا في كتابه (محاضرات في اللسانيات العامة)، وذلك منذ القطيعة الإبيستمولوجية التي أحدثها في ميدان الدراسات اللسانية إن جاز التعبير مع فقه اللغة واللسانيات التاريخية، وقد جعلت هذه القطيعة اللسانيات العلم الشامل والرائد الذي تستفيد منه مختلف المدارس والمشارب المعرفية كالنقد الأدبي والأسلوبية والتحليل النفسي وعلم الاجتماع فضلا عن جهود الوظيفيين في اللسانيات والشكلانيين الروس في الشعرية.

كما ارتبط هذا العلم من جهة أخرى بالمنطق على يد الفيلسوف الأمريكي بيرس (Ch. Peirce) في أمريكا، لكن على الرغم من ظهورهما في مرحلة زمنية متقاربة، فإن بحث كل منهما استقل وانفصل عن الآخر انفصالا تاما إلى حد ما، فالأول بشر في محاضراته)

بظهور علم جديد سماه السيميولوجيا (Sémiologie) سيهتم بدراسة الدلائل أو العلامات في قلب الحياة الاجتماعية ولن يعدو أن يكون موضوعه الرئيس مجموعة الأنساق القائمة على اعتباطية الدلالة على حد تعبير دي سوسير الذي يقول كذلك في هذا الصدد: "ونستطيع إذا- أن نتصوّر علما يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية، علما قد يشكل فرعا من علم النفس الاجتماعي وبالتالي فرعا من علم النفس العام، وسوف نسمي هذا العلم بالسيميولوجيا، ومن شأن هذا العلم أن يطلعنا على كافة هذه العلامات وعلى القوانين التي تحكمها... وإن اللسانيات ليست سوى فرع من هذا العلم العام"(مارسيلو داسكال:١٩٨٧، ص.١٥).

وقد تزامن هذا التبشير مع مجهودات تشارلز ساندرس بيرس (١٨٣٩-١٩١٤) الذي نحا منحى فلسفيا منطقيا رياضيا، وأطلق على هذا العلم الذي كان يهتم به، السيميوطيقا (Sémiotique) واعتقد تبعا لهذا أن النشاط الإنساني نشاط سيميولوجي في مختلف مظاهره وتجلياته، ويعد هذا العلم في نظره إطارا مرجعيا يشمل كل الدراسات، يقول وهو بصدد تحديد المجال السيميولوجي العام الذي يتبناه: "إنه لم يكن باستطاعتي يوما ما دراسة أي شيء- رياضيات كان أم أخلاقا أو ميتافيزيقا أو جاذبية أو ديناميكا حرارية أو بصريات أو كيمياء أو تشريحا مقارنا أو فلكا أو علم نفس أو علم صوت، أو اقتصاد أو تاريخ... دون أن تكون هذه الدراسة سيميولوجية".[٤]

إذن، فالسيميوطيقا حسب بيرس مذهب الطبيعة الجوهرية والتنوعات الأساسية للدلالة الممكنة، بمعنى نظرية عامة للعلامات وتمفصلاتها في الفكر الإنساني، ثم إنها صفة لنظرية عامة للعلامات والأنساق الدلالية في كافة أشكالها. وبالتالي، تعد سيميولوجيا بيرس مطابقة لعلم المنطق، ويضيف أمبرطو إيكو (Umberto Eco) في هذا الخصوص عن بيرس محددا مضمون علمه بكل دقة ووضوح وعلاقته بعلم المنطق. لنستمع الآن إلى بيرس وهو يقول: "إنني حسب علمي الرائد أو بالأحرى أول من ارتاد هذا الموضوع المتمثل في تفسير

وكشف ما سميته السيميوطيقا (Sémiotique) أي نظرية الطبيعة الجوهرية لأي سيرورة دلالية، إن هذه السيميوطيقا التي يطلق عليها في موضع آخر" المنطق" تعرض نفسها كنظرية للعلامات".[٥]

وبناءً على هذا نجد أن للسيمياء أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا تفاعلات كثيرة مع معارف وحقول أخرى داخل المنظومة الفكرية والعلمية والمنهجية، فلقد ارتبط هذا العلم في نشأته بالفلسفة واللسانيات وعلم النفس والاجتماع والمنطق والظاهراتية (الفينومينولوجيا) علاوة على ارتباطها بدراسة الأنثروبولوجيا كتحليل الأساطير والأنساق الثقافية غير اللفظية ، كما ترتبط منهجيا بدراسة الأدب (الشعرية والنحو والبلاغة) والفنون اللفظية والبصرية كالموسيقى والفنون التشكيلية والمسرح والسينما، الخ. أما عن ظهور السيميولوجيا في العالم العربي فقد ظهرت عن طريق الترجمة والمثاقفة والاطلاع على الإنتاجات المنشورة في أوربا والتلمذة على أساتذة السيميولوجيا في جامعات الغرب وقد بدأت السيميولوجيا في دول المغرب العربي أولا، وبعض الأقطار العربية الأخرى ثانيا، عبر محاضرات الأساتذة منذ الثمانينيات عن طريق نشر كتب ودراسات ومقالات تعريفية بالسيميولوجيا (مبارك حنون، محمد السرغيني، سمير المرزوقي، جميل شاكر، عواد علي، صلاح فضل، جميل حمداوي، فريال جبوري غزول، محمود ابراقن، قدور عبد الله ثاني، الخ)، أو عن طريق الترجمة (محمد البكري، أنطوان أبي زيد، عبد الرحمن بوعلي، سعيد بنكراد، الخ)، وإنجاز أعمال تطبيقية في شكل كتب (محمد مفتاح، سعيد بنكراد، محمد السرغيني، سامي سويدان، الخ)، أو مقالات (انظر مجلة علامات ودراسات أدبية لسانية سيميولوجية بالمغرب ومجلة عالم الفكر الكويتية وعلامات في النقد السعودية ومجلة فصول المصرية)، أو ملتقيات علمية في مختلف الجامعات العربية.

٢.مفهوم السيميولوجيا / السيميوطيقا / السيمياء

لقد تناول الباحثون المختصون مفهوم السيميولوجيا / السيميوطيقا / السيمياء حسب نظريات متفقة أو مختلفة، وحسب مجالات متنوعة، كما تناولوا كل مكوناتها وعناصرها وقد كتبت مقالات في هذا الشأن، وألفت كتب وعقدت ندوات، بيد أن القارئ المبتدئ أو العادي الذي قد يكون في عجلة يخرج مضبب الرؤى لا تتضح أمامه مظاهر الاشتراك والافتراق بين تلك النظريات والمجالات، وخاصة الطالب العربي يواجه الكثير من الصعوبات، حينما يدرس السيميولوجيا ويحاول أن يستوعبها ويتمثلها ليجتهد فيها، والتي تتجلى بالأساس في تداخل المصطلحات وتشعبها واختلاف مضامينها.

١.٢. التعريف اللغوي للسيميولوجيا

إن كلمة سيميولوجيا (Sémiologie) من الأصل اليوناني (Sémion) أو (Sémaino) والمتولدة هي الأخرى من الكلمة (Séma) وتعني العلامة (الدليل) (signe) وهي بالأساس الصفة المنسوبة إلى الكلمة الأصل (Sens) أي المعنى. أما عن لفظة (لوجيا) (logie)فتعني العلم، وبالتالي فإن كلمة السيميولوجيا أو السميوطيقا من الناحية اللغوية تعني علم العلامات.[٦]

٢.٢.التعريف الاصطلاحي للسيميولوجيا /السميوطيقا/السيمياء

إن السيميولوجيا، لدى دارسيها تعني "علم دراسة العلامات دراسة منظمة و منتظمة"،[٧] فهي تدرس مسيرة العلامات في كنف الحياة الاجتماعية و قوانينها التي تحكمها، مثل أساليب التحية عند مختلف الشعوب وعادات الأكل والشرب عندهم، الخ. إلا أن الأوروبيون يفضلون مصطلح السيميولوجيا التزاما منهم بالتسمية السوسيرية نسبة إلى دي سوسير، أما الأمريكيون فيفضلون مصطلح السميوطيقا التي جاء بها المفكر والفيلسوف الأمريكي تشارلز ساندرس بيرس.

فعندما يحاول الباحث في مصطلح (السيمياء) أن يؤرّخ بإيجاز لهذا العلم يلتقي في فترة مبكرة من حركة التأليف في المصطلحات العلمية بالعالم المشهور جابر بن حيان (ت ٢٠٠هـ ـ ٨١٥ م) وهو على الرغم ممّا أثير حول سيرته ومؤلفاته من جدال، كانت ثقته بنفسه وبعلمه أكبر من أن يسعفه على تحقيقها التطورُ العلمي الذي بلغه في عصره، فقد بلغ جابر مرحلةً متقدمة في علم الكيمياء، وكان خياله العلمي الطموح يُفضي به إلى أن ينقل المعادن التي يعالجها من حالةٍ إلى حالة، وتطلّع إلى أن يحوّل المعادن الخسيسة إلى معادن ثمينة، وكان هذا حلم البشرية منذ قديم الزمان، ولكن مُخْبَرَه المتواضع بأجهزته لم يمكِّنه من ذلك، فتحول عنده الطموح من عالم التحقيق إلى عالم التخيل والوهم. وأنفق وقتاً كبيراً، وجهوداً كثيرة في إحالة الأجسام النوعية من صورة إلى أخرى، فوقع في طلب المستحيل، وتحوَّل عنده علم الكيمياء إلى علم السيمياء الذي كان في مفهوم ذلك العصر يقترب من السحر. كما تحول علم الفلك عند العرب إلى علم التنجيم، فعلم السيمياء، كما أطلق عليه صاحب كتاب (أبجد العلوم) اسم (ما هو غير حقيقي من السحر).[٨]

ولهذا قال بعض مؤرخي تاريخ العلوم عند العرب: إن جابر بن حيان، هذا العالم الجليل كان كبير السَحَرة في هذه المِلَّة، تصفّح كتب القوم، واستخرج الصناعة، وغاص في زبدتها واستخدمها، ووضع فيها عدّة تآليف، وفي صناعة السيمياء خاصة. وأضاف . أي مؤلف كتاب أبجد العلوم . "أن في هذا الباب (حكايات عن ابن سينا والسُّهروردي كثيرة. وأطال ابن خلدون في هذا العلم" ، وقال: إن لفظ سيمياء) عبرانيٌ معرَّب، أصله (سيم يه) ومعناه: اسم الله، وأما المقالات السبع عشرة للحلاّج فإنما هي على سبيل الرمز، وقد حقق ابن تيمية في مؤلفاته أن الحلاّج كان من الساحرين المشعوذين وعرَّفه التهانوي في كتابه (كشّاف اصطلاحات الفنون) بأن السيمياء (هو علم تسخير الجن، كذا في بحر الجواهر).[٩]

وكما يقول معجب الزهراني: إن السيمياء ترتبط بحقل دلالي لغوي – ثقافي يحضر معها فيه كلمات مثل السمة والتسمية، والوسام والوسم والميسم والسيماء، والسيمياء(بالقصر

والمد) والتي تعني علم العلامة.[١٠] ويتضح مما سبق أن لفظ السيمياء قد ورد في القرآن الكريم ست مرات، وذلك في قوله تعالى: ﴿**تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا**﴾ (سورة البقرة: ٧٦)، وقوله تعالى: ﴿**وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم**﴾ (سورة الأعراف: ٤٦) وقوله تعالى: ﴿**ونادى أصحاب الأعراف رجال يعرفونهم بسيماهم**﴾ (سورة الأعراف: ٤٨)، وقوله تعالى: ﴿**ولو نشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم**﴾ (سورة محمد: ٣٠)، وقوله تعالى ﴿**سيماهم في وجوههم من أثر السجود**﴾ (سورة الفتح: ٢٩)، وقوله تعالى: ﴿**يعرف المجرمون بسيماهم**﴾ (سورة الرحمان: ٤١).

وما دُمنا في سياق المعجمات، وفي إطار مصطلَحيْ الكيمياء والسيمياء يجدر بالذكر أن نقول إن المعجمات الأجنبية فرَقت بين هذين المصطلحين، فالكيمياء (Chemistry) هو علم الكيمياء المعروف و(Alchemy) يرمز في هذه المعجمات إلى ما نطلق عليه في العربية مصطلح السيمياء، وعند التعريف نقول هذه المعجمات الأجنبية إنه علم كيمياء القرون الوسطى. ومن ثمّ فالهدف من دراسة السيمياء أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا هو دراسة المعنى الظاهر والخفي لكل نظام علاماتي فهي تدرس لغة الإنسان اللفظية وغير اللفظية وما يحيط به باعتبارها نسق من العلامات مثل: العلامات التجارية وإشارات المرور والخرائط والصور الفوتوغرافية، الخ.

٣. موضوع السيميولوجيا أو السيميوطيقا أو السيمياء في التصورين الغربي والاسلامي

يضيف كوكيه (J.C.Coquet) أحد أقطاب مدرسة باريس السيميولوجية قائلا: "إن القارئ العادي، وكذلك الباحث في مجال العلوم الاجتماعية من حقهما أن يتساءلا عن موضوع هذا العلم، إلا أنهما مع ذلك يجب أن يعلما أن التعريفات والتحديدات، تختلف ولاسيما إذا تعلق الأمر بموضوع علمي لم يمر على ميلاده وقت طويل".[١١]

في حين وضحت (جوليا كرستيفا) موضوع السيميولوجيا في قولها: "إن دراسة الأنظمة الشفوية وغير الشفوية ومن ضمنها اللغات بما هي أنظمة أو علامات تتمفصل داخل تركيب الاختلافات، إن هذا هو ما يشكل موضوع علم السيميوطيقا".[١٢]

وعلى الرغم من المكانة التي تبوّأتها السيميولوجيا، فإنها لا تنفرد بموضوع خاص بها، فهي تهتم بكل ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية العادية شريطة أن تكون هذه الموضوعات جزءا من سيرورة دلالية. فكل مظاهر الوجود اليومي للإنسان تشكل موضوعا للسيميولوجيا، فالضحك والبكاء والفرح واللباس وطريقة استقبال الزوار وإشارات المرور والطقوس الاجتماعية والأشياء التي نتداولها فيما بيننا، وكذلك النصوص الأدبية والأعمال الفنية، كلها علامات نستند إليها في التواصل مع محيطنا، فكل لغة من هذه اللغات تحتاج إلى تقعيد، أي تحتاج إلى الكشف عن القواعد التي تحكم طريقتها في إنتاج معانيها، مستندة في ذلك، وفي الكثير من الحالات، إلى ما تقترحه العلوم الأخرى من مفاهيم ورؤى.[١٣]

واستنادا إلى هذا، فإن الموضوع الرئيس للسيميولوجيا حسب بيرس هو السيرورة المؤدية إلى إنتاج الدلالة، أي ما يطلق عليه في الاصطلاح السيميولوجي السميوز (Sémiosis)، والسميوز في التصور الدلالي الغربي هي (الفعل) المؤدي إلى عملية إنتاج الدلالات وتداولها، أي سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما باعتباره علامة،وبهذا فإن كل واقعة تستند من أجل إنتاج دلالاتها، إلى سيرورة داخلية تجمع بين العناصر المكونة لها.[١٤] فكل فعل ينتج، لحظة تحققه، سلسلة من القيم الدلالية تستند، في وجودها، إلى العرف الاجتماعي وتواضع الاستعمال، ذلك أن التسنين الثقافي هو وحده الذي يسمح بفهمها واستيعاب أبعادها المختلفة، وهذا الطابع يجد مبرره الأساس في طبيعة الفعل ذاته، فكل فعل هو سيرورة مركبة ولا يمكن أن يكون كلية مكتفية بذاتها. وعليه فأن يكون (السميوز) نسيجا من العلامات، فهذا معناه أن ما يحدد هويتها ليس مادة أصلية وليس عناصر معزولة بل مفهوم العلاقة ذاته، فالدال باعتباره أداة التعرف الأولى ينتج مدلولا وفق علاقة مبنية على ترابط اعتباطي، وهذه

العلاقة هي ما يحدد فعل إنتاج المعاني وتداوله، فالوظيفة الأصلية للعلامة هي وظيفة اختلافية منبثقة عن علاقة وليست حصيلة لمادة دالة بذاتها.[١٥]

وعليه فمن خلال تمعن التعريفات التي قدمت للسيمياء أو السيميولوجيا أو السيميوطيقا يتضح أنها جميعها تتضمن مصطلح (العلامة)، ويعني هذا أن السيمياء أو السيميولوجيا أو السيموطيقا هي علم العلامات ومن الصعب إيجاد تعريف دقيق للعلامة لاختلاف مدلولها من باحث لآخر، فعند دي سوسير (F. de Saussure) تتكون العلامة من الدال والمدلول أي بالصورة الصوتية وهي الدال والصورة الذهنية المعنوية وهي المدلول،كما اعتبر السيميولوجيا علما للعلامات التي تدرس في حضن المجتمع.

وإن هذه العلامات تنقسم إلى ثنائيتين: قرينة/إشارة، ورمز/دليل.

أ.القرينة والإشارة

تعد النية في التبليغ العامل الأساسي في التمييز بين ماهو قرينة وبين ما هو غير قرينة أي الإشارة، فبخلاف الإشارة (الاتصالية)، فإن القرينة هي كل دليل لا يتضمن أي نية في التبليغ.[١٦]

ب.الرمز والدليل

تكون الإشارة الاتصالية التي نخصها بتسمية الدليل (بخلاف الإشارة الدلالية) إما رمزا أو دليلا (سيميولوجيا أو لغويا).[١٧]

- **الرمز**

بخلاف كثير من السيميائيين فرق دو سوسير بين العلامة والرمز فنسب إلى العلامة الصفة الاعتباطية وإلى الرمز الصفة التعليلية.[١٨]

- الدليل

بخلاف الرمز فهو لا يتمتع بأي علاقة طبيعية مثل: استحمام خطير عند رؤية العلم الأحمر في الشاطئ، حيث نقول عن هذه الإشارة دليل سيميولوجي. أمثلة أخرى

للدليل السيميولوجي: لافتة الريح الجانبية، اللافتة التي تدل على وجود أشغال. وهذا يؤكد لنا ارتكاز العلامة على ماهو لغوي ونفسي واجتماعي.

في حين تتحول سيميوطيقا بيرس إلى جهاز عملي غايته القصوى هي البحث عن مختلف الأنظمة الدالة وفي مختلف العلوم سواء كانت إنسانية أو عقلانية، لأن بيرس أدرك أن هذه العلوم جميعها هي علوم تقوم على مبدأ العلامة. فالعلامة في تصور بيرس هي الوجه الآخر لأواليات الإدراك، لذا لا يمكن تصور السميوطيقا مفصولة عن عملية إدراك الذات وإدراك الآخر، إدراك (الأنا) وإدراك العالم الذي تتحرك داخله هذه (الأنا). فالتجربة الإنسانية، كما سبقت الإشارة، تشتغل بكافة أبعادها كمهد للعلامات: لحياتها ولنموها ولموتها أيضا. فلا شيء يفلت من سلطان العلامة، ولا شيء يمكن أن يشتغل خارج نسق يحدد له سمكه وطرق إنتاجه لمعانيه، ولا وجود لشيء يخلق حرا طليقا لا تحكمه حدود ولا يحد من نزواته نسق، ومن ثمّ فالعلامة عند "بيرس" تتكون من كيان ثلاثي:[١٩]

الممثل (الماثول) هو صورة صوتية أو مرئية لكلمة ما. و**الموضوع** قد يكون واقعي أو قابل للتخيل أو غير قابل للتخيل أي الموضوع الديناميكي،وهو الشيء في العالم الموجودات، وثانيهما هو الموضوع المباشر، وشكل جزءا من أجزاء العلامة، وعنصرا من عناصرها المكونة.و**المؤول** صورة ذهنية مترابطة مع كلمة أو غير مترابطة. وبهذا فهي تنبني على نظام رياضي منطقي قائم على نظام ثلاثي كما في الشكل الموالي:

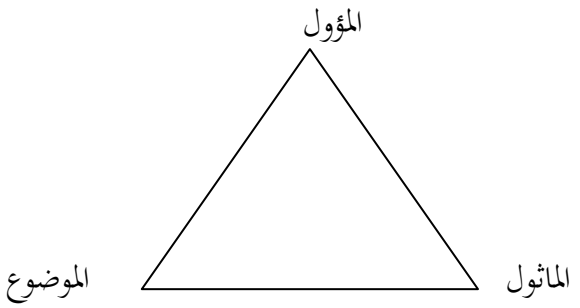

فالعلامة إذن هي ماثول يحيل على موضوع عبر مؤول. وهذه الحركة (سلسلة الإحالات) هي ما يشكل في نظرية بيرس ما يطلق عليه السميوز، أي النشاط الترميزي الذي يقود إلى إنتاج الدلالة وتداولها. وبعبارة أخرى، إن السميوز هي المسوؤلة على إقامة العلاقة السيميوطيقية الرابطة بين الماثول والموضوع عبر فعل التوسط الإلزامي الذي يقوم به المؤول. وعلى هذا الأساس، فإن السميوز تتحدد باعتبارها سيرورة يشتغل من خلالها شيء ما كعلامة، وتستدعي استيعاب الكون من خلال ثلاثة مستويات: ما يحضر في العيان وما يحضر في الأذهان وما يتجلى من خلال اللسان.[٢٠] ولكن ورغم هذا ميز لنا بيرس مؤسس السيميوطيقا الحديثة عام (١٨٧٨)، بين ثلاثة أنواع من العلامات، هي الأيقونة، والمؤشر، والرمز.

أ. الأيقونة (Icone)

إن هذا النمط من العلامات يكون فضاء أرحب للسيميوطيقات بعامة والسيميوطيقات البصرية التي عبرت عنها الثقافات القديمة، وأخذت صبغة دينية حينما صارت الأيقونة تشير إلى طلاء ديني خالص للكنيسة الارثدكسية في الشرق.لقد اهتم بها علماء الانثروبولوجية الثقافية ووقف عليها الفيلولوجيون وعلماء الآثار، ولكن الحضارة المعاصرة والمجتمعات الحديثة وجدت فيها ضالتها، بل أصبحت لغتها الحية التي تتجاوز في بعض الأحايين معوقات اللسان في تحقيق تواصل أوسع بين البشر.فتكاد تكون الأيقونة الموضوع الذي له حظوة ربما أكثر من غيره من العلامات الأخرى في السيميولوجيا المعاصرة علما بان الموضوعات التي تربط بينهما علاقة المشابهة التي لا يمكن أن نفهمها على النحو الذي تشير إليه كما هو الحال في الخرائط.[٢١]

ب.المؤشر (Indexe)

كثيرا ما تتداخل المؤشرات مع القرائن على الرغم من أن المؤشرات علامات اعتباطية وان القرائن تكون تعليلية إن هي اندمجت في إطار العلامات الطبيعية، حيث هناك علاقة سببية

بين الدال والمدلول، ولكن سبب هذا التداخل إلى أنهما يبدوان مترادفين، حيث ينضاف إلى ذلك البعد (التلاصقي) الذي يتباين بين المؤشرات والقرائن.[٢٢]

ج.الرمز (Symbole)

وهو عند بيرس المعادل الحقيقي للعلامة عند دو سوسير إذ يرى أن علاقة الرمز بمدلوله هي علاقة اعتباطية عرفية فقط. وبهذا تبدو العلامة في تعاريف السيميائيين كيانا واسعا ومفهوما قاعديا وأساسيا في جميع علوم اللغة.

في حين نجد أن التراث الفكري العربي بشموليته الحضارية عبارة عن نظام من العلامات الدالة والتي إذا ما أوغلنا التأمل فيها وجدنا أن هذا التراث الواسع يتجلى فيمايلي:[٢٣]

١ – الموروث اللساني: ويتمثل في

- الموروث النحوي
- الموروث اللغوي
- الموروث المعجمي

٢– الموروث البلاغي: ويتجلى في:

- الجانب التقني للبلاغة بمعاييرها المألوفة
- الجانب النقدي
- الجانب الاعجازي
- الجانب الأدبي (المدونات الأدبية الكبرى)

٣– الموروث الديني: وينقسم إلى:

- التفسير
- علم الأصول

٤– الموروث الفلسفي

٥- الموروث الاجتماعي

أما عن مفهوم العلامة عند الدارسين الأقدمين يتجاوز مفهوم السمة والأمارة والدليل وكل ذلك يتعلق بالدلالة، وهي في تصورهم "كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر".[٢٤]

في حين يقول ابن فارس (٣٩٥هـ) "دلّ : أصل يدل على إبانة الشيء بأمارة تتعلمها، والدليل الأمارة في الشيء"، وفي حديث ابن هلال العسكري (٤٠٠هـ) عن العلامة والدلالة يقول: "يمكن أن يستدل بها أقصد فاعلها ذلك أو لم يقصد والشاهد أن أفعال البهائم تدل على حدثها، وليس لها قصد إلى ذلك ... وآثار اللص تدل عليه وهو لم يقصد ذلك، وما هو معروف في عرف اللغويين، يقولون استدللنا عليه بأثره وليس هو فاعل لأثره قصدًا".[٢٥] وهذه إشارة واعية من ابن هلال إلى إشكالية القصدية في العلامة وهي الإشكالية التي تثير موضوع الجدل بين فريقين: فريق يؤكد الطبيعة التواصلية للعلامة ويمثل هذا الفريق كل من (بريلو) و(مونان) و(مارتيني) في الثقافة اللسانية والسيميولوجية المعاصرة الفرنسية وهم يرون أن العلامة تتكون أساسا من دال ومدلول والقصد. وفريق آخر يركز على الجانب التأويلي للعلامة: أي من حيث قابليتها للتأويل الدلالي بالنسبة للمتلقي، ويمثل هذا الاتجاه رولان بارت وهو ما يسمى بـ السيمائية الدلالية.

وهو نفس التصور لدى الراغب الاصبهاني حيث يقول " الدلالة ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى، ودلالات الإشارات والرموز والكتابة. وسواء أكان ذلك بقصد من يجعله دلالة أم لم يكن بقصد، كمن يرى حركة إنسان فيعلم أنه حي ، قال تعالى: ﴿**ما دلّهم على موته إلا دابة الأرض**﴾.

فالراغب بهذا التصور للدلالة يوسع المجال الإجرائي للعلامة لتشمل أنماطا لسانية وسيميائية (الألفاظ – الإشارات – الرموز – الكتابة) ثم يؤكد قضية القصدية عدمها في العلامة، وإذ تتحقق دلالة العلاقة في محيطها الطبيعي والاجتماعي والثقافي سواء أكان هناك

قصد أم لم يكن، إذ جسد ذلك بصورة سليمان عليه السلام كما ورد في الآية الكريمة إذ بعد وفاته ظل حولا كاملا منتصبا ومتكئا على عصاه وهذه الهيئة هي علامة دالة أولتها الجن بدلالة الحياة، لذلك ظلت تسعى وتعمل كأنها مأمورة غير أن الأمر هنا ليس بالنطق أو الإشارة وإنما كان بالهيئة فهي إذن علامة دالة على الحياة لدى الكائن الحي، وبالتقادم بدأت الأرضة تأكل عصاه فخر ساقطا، وهذه العلامة هي علامة فناء وانتهاء.

وعليه فقد اهتم الدارسون القدامى على اختلاف اتجاهاتهم العلمية من فلاسفة ولغويين وفقهاء، بطبيعة العلامة من حيث هي شيء محسوس بديل في الواقع المدرك من شيء غائب عن الأعيان ولذا كان عالم يرى تفسير ا محددا لطبيعة هذه العلامة، آخذا بعين الاعتبار زاوية من الزوايا مبرر ا خصائصها ومميزاتها. فها هو ابن سينا يقول في كتابه الشهير (الشفاء) في هذا المضمار: "إن الإنسان قد أوتي قوة حسية ترتسم فيها صور الأمور الخارجية، وتتأدى عنها إلى النفس، فترتسم فيها ارتساما ثانيا ثابتا وإن غابت عن الحس... ومعنى دلالة اللفظ أن يكون إذا ارتسم في الخيال مسموع اسم، ارتسم في النفس معنى، فتعرف النفس أن هذا المسموع لهذا المفهوم، فكلما أورده الحس على النفس التفتت إلى معناه".

ومن هنا يلاحظ المتأمل ويدرك أن تصور ابن سينا لدلالة اللفظ يتوافق تماما مع ما ذهب إليه دي سوسير في تفسير العلامة. فالعلامة في نظر ابن سينا هي ثنائية المبنى تتكون مسموع اسم / معنى، ملغيا بذلك من مفهوم العلامة الواقع الخارجي أو المرجع الذي تميل إليه العلامة وذلك ما فعله دي سوسير أيضا، على عكس ما نجده عند فئة أخرى من الدارسين الأقدمين ومن بينهم الغزالي في كتابه معيار العلم الذي يعد المرجع طرفا أساسيا في العلامة، فهو يرى أن الأشياء في الوجود لها أربع مراتب حيث يقول: "إن للشيء وجودا في الأعيان ثم في الأذهان ثم في الألفاظ ثم في الكتابة، فالكتابة به دالة على اللفظ واللفظ دال على المعنى الذي في النفس والذي هو مثال الموجود في الأعيان".

إذن فالعلامة في نظرا الغزالي كيان متكامل يتكون من أربعة أطراف أساسية:

- × الموجود في الأعيان.
- × الموجود في الأذهان.
- × الموجود في الألفاظ.
- × الموجود في الكتابة.

إن اللغة الإنسانية تعكس قدرة الإنسان العقلية في إبداع نظامه التواصلي لتحقيق إنسانيته في الوجود. هذا النظام الذي يمكنه من التكيف مع الواقع الخارجي.

وعليه قسم عادل فاخوري العلامات في الفكر العربي الإسلامي إلى ثلاثة أنساق:

١. العلامة اللفظية:(اللغة — الشعر – الرواية) أو غير اللفظية: (الأزياء – الأطعمة والأشربة — الإشهار – علامات المرور – الفنون الحركية والبصرية كالسينما المسرح والتشكيل).[٢٦]

٢. العلامة الوضعية أو الطبيعية أو العقلية، وهذا إذا تم الأخذ بعين الاعتبار طبيعة العلاقة القائمة بين الدال والمدلول.

فالعلامة الوضعية هي العلامة المتعارف عليها في بيئة اجتماعية، بحيث يكون متفق عليها من قبل أفراد المجتمع اللغوي، حيث تندرج ضمن هذا النوع كل العلامات اللفظية مثلما توصف المرأة بالفراشة دلالة على رشاقتها وجمالها.[٢٧] أما العلامة الطبيعية فهي العلامة الناتجة عن أحداث طبيعية، سواء كانت طبيعية اللفظ أو طبيعة الحامل المادي للعلامة فكل العلامات التي تعكس أصوات الطبيعة من خرير المياه وحفيف الأشجار تنسحب ضمن هذا النوع، وكذلك الأصوات الملازمة للانفعالات والتعبيرات الفيزيولوجية كملامح الوجه وتغير لونه من حالة إلى أخرى، أما العلامة العقلية فالمراد بها دلالة الأثر عل المؤثر كدلالة السحاب على المطر والدخان على النار، وهي تنحصر في التراث العربي في علاقة العلية أو السببية أي وجود علاقة ذاتية بين الدال والمدلول:[٢٨]

تكون العلامة وضعية لفظية أو اصطلاحية: فهي لا تعدو أن تكون واحدة من ثلاث وهي: المطابقة والتضمن والملازمة، فلفظ البيت مثلا يدل على معنى البيت بطريقة المطابقة، ويدل على السقف بالتضمن لأن البيت يتضمن السقف، أما دلالة الملازمة فهي كدلالة لفظ السقف على الحائط، فهي كالرفيق الملازم الخارج عن ذات السقف الذي لاينفصل عنه.[٢٩]

خاتمة

من خلال هذا العرض الوجيز لمفهوم علم السيمياء أو علم العلامات في التراث الغربي و الاسلامي، نرى أن أسلافنا هم أول من أدرك أهمية دراسة العلامة من حيث هي حقيقة مادية حسية تحليل إلى حقيقة مجردة غائبة. وبهذا فهي تعد هذه المفاهيم الأولية أرضية متينة لإمكانية وجود تفكير سيميائي و علاماتي عربي أصيل.

هوامش البحث:

(*) يرى إيكو أيضا أن الرواقيين هم أصلا من العمال الأجانب في أثينا وبالتالي فهم دخلاء عليها، فأصلهم الحقيقي يعود إلى الكنعانيين الفينيقيين القادمين من أرض كنعان. انظر: ميشال، آريفيه، وآخرون، **السميائية أصولها وقواعدها**، ترجمة بن مالك رشيد، (الجزائر: منشورات الاختلاف، ٢٠٠٢)، ص٢١

[١] انظر: المرجع السابق نفسه، ص٢١.

[٢] المرجع السابق نفسه، ص٢٢-٢٣.

[٣] انظر: المرتجي، أنور، **سيميائية النص الأدبي**، (الدار البيضاء: إفريقيا الشرق، ١٩٨٧)، ص٣.

[٤] انظر:

. Dictionnaire encyclopédique des sciences du١٩٧٢. Oswald Ducrot/Tzvetan Todorov .langage. Edition du Seuil. P.١١

[٥] انظر: إدريس، بلمليح، **الرؤية البيانية عند الجاحظ**، (الدار البيضاء: دار الثقافة، ١٩٨٤)، ص١١١.

[٦] انظر: برنار، توسان، **ما هي السيميولوجيا**، ترجمة محمد نظيف، (بيروت: إفريقيا الشرق، ط٢، ٢٠٠٠)، **ص٩**.

[٧] انظر: سعد، الرويلي، واليازعي، **دليل الناقد الأدبي**، (بيروت: المركز الثقافي العربي، ط٣، د. ت).

[٨] انظر: صديق، القنوجي، **أبجد العلوم**، ج٢، ص٣٩٢.

[٩] انظر: السابق نفسه.

[١٠] انظر: سعد، الرويلي، واليازعي، **دليل الناقد الأدبي**، ص ١٧٧-١٧٨.

[١١] انظر: Hachette Paris Sémiotique ; l'école de .١٩٨٢. J.C.Coquet et autres. P.٥.

[١٢] انظر: عصام، خلف كامل، **الاتجاه السيميولوجي ونقد الشعر**، (القاهرة: دار فرحة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٣)، ص٢٦.

[١٣] انظر: سعيد، بن كراد، **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**، (المغرب، الدار البيضاء، ٢٠٠٣)، ص١١-١٩.

[١٤] السابق نفسه، ص١٧١.

[١٥] انظر موقع إلكتروني: (http://www.megaclick.com/).

[١٦] انظر: حمود، إبراقن، **المدخل إلى سيميولوجيا الاتصال**، قاموس اللسانيات سيميولوجيا الاتصال، ص٢٩.

[١٧] انظر: قدور، عبد الله ثاني، **سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم)**، (الجزائر: دار الغرب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص٩٣.

[١٨] انظر: يوسف، أحمد، **السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات**، (الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت: المركز الثقافي العربي المغرب، ٢٠٠٥)، ص٩٧.

[١٩] انظر: سعيد، بن كراد، **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**، ص٦٠؛ و بشير، تاوريريت، **محاضرات في مناهج النقد الأدبي المعاصر**، (الجزائر: دار الفجر للطباعة والنشر، ٢٠٠٦)، ص ١٢٠-١٢١.

[٢٠] انظر: سعيد، بن كراد، **السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها**، ص٦١.

[٢١] انظر: يوسف، أحمد، **السيميائيات الواصفة المنطق السيميائي وجبر العلامات**، ص٩٣.

[٢٢] السابق نفسه، ص١١١- ص١١٢.

[٢٣] انظر: قدور، عبد الله ثاني، **سيميائية الصورة (مغامرة سيميائية في أشهر الإرساليات البصرية في العالم)**، ص ٥٢-٥٣.

[٢٤] انظر: الجرجاني، علي بن محمد، **التعريفات**، (القاهرة: دار الكتاب المصري، ١٩٩١)، ص٤٦.

[٢٥] انظر: العسكري، ابن هلال، **الفروق في اللغة**، (بيروت: دار الأفاق الجديدة، ط٤، ١٩٦٣)، ص١٣.

[٢٦] انظر: عادل، فاخوري، **علم الدلالة عند العرب**، (بيروت: دار الطليعة، ١٩٨٥)، ص ١٣.

[٢٧] انظر: سلاطنية، بلقاسم، **مجلة العلوم الإنسانية**، العدد الثاني، ٢٠٠١، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، ص٦٠.

[٢٨] انظر: عادل، فاخوري، **علم الدلالة عند العرب**، ص ١٩.

[٢٩] انظر: ماهر، مهدي هلال، **الألفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب**، (بغداد: دار الحرية، ١٩٨٠)، ص٢٨.